الدَّرسُ الأوَّلُ (1)

دلالة الاِشتراكِ وأثرها في اختلاف المُفسِّرين

هذا هو الدَّرسُ الأوَّلُ من دروس (آثارِ التَّفسير اللُّغويِّ)، وسنسيرُ بإذن الله في جميع الدُّروسِ تقريبًا على وتيرةٍ واحدةٍ؛ ينتظمُ فيها الدَّرسُ على سبيلِ الإجمال في مسألتين اثنتين؛ تمثِّلُ الأولى منهما القسم الأوَّل النَّظريَّ من الدَّرس (التَّعريفاتُ والأمثلةُ والضَّوابط والأنواع ...)، فيما تكونُ المسألة الثَّانية في الجانبِ العمليِّ التَّطبيقيِّ على آياتِ القُرآن الكريم، وبيانُ ذلك كالآتي:

المسألةُ الأولى: تعريف المشترك اللَّفظي ووجوده في القُرآن:

– الأسماءُ في اللغة العربية على ثلاثة أضربٍ؛ قال ابنُ فارسٍ رحمه الله (ت:395هـ): «يُسمَّى الشيئان المختلفان بالاسمين المختلفين، وذلك أكثر الكلام [وهذا هو المتباين]؛ كرَجُل وفرس. وتسمى الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد [وهذا هو المشترك]، نحو: "عين الماء" و"عين المال" و"عين السحاب". ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة [وهذا هو المترادف]. نحو: "السيف والمهنّد والحسام»[1].

والنَّوعُ الثَّاني من هذه الأقسام هو: المشتركُ اللَّفظيُّ. قال السيوطيُّ رحمه الله (ت:911هـ) في تعريفه: «وقد حدَّه أهل الأصول بأنه: اللفظُ الواحدُ الدالُّ على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة»[2].

وهو موجودٌ في اللغة والعربية وفي القرآن الكريم، ومن أمثلته في القرآن العظيم لفظ (النَّجمُ) من قوله تعالى: ﴿**وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ**﴾[الرحمن:6]، على ما سيأتي بيانُهُ عند سياق الأمثلة.

– وجود (المشترك) في القرآن الكريم وجهٌ من وجُوه إعجازه

عدَّ السُّيوطيُّ رحمه الله (ت:911هـ) وجود (المشترك) في القرآن الكريم، من أعظم وجوه إعجازه، ووجه كونه كذلك أنه يُكسبُ اللفظ الواحد المعاني العديدة التي يتصرف عليها، ولا يقتصر على معنًى واحدٍ، فهو مصدرٌ من مصادر الثَّراء المعنوي لألفاظ القرآن الكريم، وفي هذا الصدد يقول رحمه الله: «الوجه الخامس والثلاثون من وجوه إعجازه (ألفاظه المشتركة): وهذا الوجه من أعظم إعجازه، حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً، وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر. وقد صنّف في هذا النوع وفي عكسه

---

[1] ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، ص59.

[2] السيوطي، المزهر في علوم اللغة، ج1، ص292.

– وهو ما اختلف لفظه واتحد معناه – كثير من المتقدمين والمتأخرين، منهم ابن الجَوْزِي، وابن أبي المعالي، وأبو الحسين محمد بن عبد الصمد المصري، وابن فارس، وآخرون. قال مقاتل بن سليمان في صدر كتابه المصنف في هذا المعنى حديثاً مرفوعاً: (لا يكون الرجل فقيهاً كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة)، [...] وقد فسره بعضهم بأن المراد: أن يرى اللفظ الواحد يحتمل معاني متعددة؛ فيحمله عليها، إذا كانت غير متضادة، ولا يقتصر به على معنى واحد»[1].

المسألةُ الثَّانيةُ: أمثلةٌ على أثر دلالةِ الاشتراكِ في اختلافِ المُفسِّرين

1– من ذلك كلمة (**يأتلِ**) من قول الله ﷻ: ﴿**وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[2][النور:26]، إذِ اختلفَ اللُّغويُّون وأهلُ التَّفسير في تفسيرها على قولين:

– الأوَّلُ: يُقسِمُوا، ومنه الإيلاءُ الذي هو القَسَمُ على عدمِ قُربانِ الزَّوجةِ مُدَّةً مُعيَّنةً.

– والآخرُ: يُقصِّروا ويتركوا الفعل، من قولهم: فعلتُ جُهدي ولم آلُ، أي لم أقصِّرْ، ومنهُ قولُ معاذٍ ﷺ: (أجتهدُ رأيي ولا آلو)؛ «أَيْ أَطْلُبُ حُكْمَ تِلْكَ الْوَاقِعَةِ بِالْقِيَاسِ عَلَى الْمَسَائِلِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا نَصٌّ، وَأَحْكُمُ فِيهَا بِمِثْلِ الْمَسْأَلَةِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا نَصٌّ، لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُشَابَهَةِ، (وَلَا آلُو) بِمَدِ الْهَمْزَةِ مُتَكَلِّمٌ مِنْ أَلَى يَأْلُو؛ أَيْ مَا أُقَصِّرُ»[3].

قال النَّحَّاسُ رحمه الله (ت:338هـ) في (معاني القرآن): «فيه قولان: أحدهما: رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: لا يقسموا ألا ينفعوا أحدا. والآخر: أن المعنى لا يقصروا؛ من قولهم: ما ألوت أن أفعل. قال هشام: ومنه قول الشاعر:

ألا رب خصم فيك ألوى رددته * نصيح على تعذاله غير مؤتلي»[4].

---

[1] السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج1، ص387-388.

[2] معنى الآية إجمالاً: «ولا يحلف أهل الفضل في الدين والسَّعَة في المال على ترك صلة أقربائهم الفقراء والمحتاجين والمهاجرين، ومنعهم النفقة؛ بسبب ذنب فعلوه، ولْيتجاوزوا عن إساءتهم، ولا يعاقبوهم. ألا تحبون أن يتجاوز الله عنكم؟ فتجاوزوا عنهم. والله غفور لعباده، رحيم بهم. وفي هذا الحثُّ على العفو والصفح، ولو قوبل بالإساءة» نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص352.

[3] علي القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج6، ص2428.

[4] النحاس، معاني القرآن، ج4، ص511.

وقال السَّمرقنديُّ رحمه الله (ت:373هـ) في (بحر العُلوم): «(**وَلا يَأْتَلِ**)، يعني: لا يحلف، وهو يفتعل من الأَلِيَّةُ وهي اليمين. [...] ويقال: معناه ولا يدع أن ينفق ويتصدق، وهو يتفعل من ألوت أني أصنع كذا. ويقال: ما ألوت جهدي، أي ما تركت طاقتي»[1].

وأبسطُ منها عبارةُ الزَّمخشريِّ رحمه الله (ت:538هـ) في (الكشَّاف): «وهو من ائتلى إذا حلف: افتعال من الألية. وقيل: من قولهم: ما ألوت جهدا، إذا لم تدخر منه شيئا. ويشهد للأول قراءة الحسن: ولا يتأل. والمعنى: لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان. أو: لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها، فليعودوا عليهم بالعفو والصفح، وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم»[2].

ومعنى الآية مُتَّسِقٌ على التَّقديرين جميعًا؛ إذ معناها على القول الأولِ: ولا يحلف أُولو الفَضْلِ على أَنْ لا يُحِسنوا. وعلى الثاني: ولا يُقَصِّر أُولو الفَضْل في أَنْ يُحِسنوا[3]. وواضحٌ ممَّا سبق سياقُه من الأقوال؛ أنَّ سبب الخلاف منشؤه اشتراكُ الفعلين: اِئتلَى بمعنى حلف، وأَلَى بمعنى قصَّر، في صيغة النَّهي (لا يأتلِ)، مع إمكانِ حملِ الآية عليهما دون تعارضٍ[4].

2- من ذلك كلمة (**اليمين**) من قول الله ﷻ: ﴿**فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ**﴾[5][الصافات:93]، فقد ذكر أهلُ اللُّغة وأهلُ التَّفسير في معناها ثلاثةَ أقوالٍ: الأوَّلُ أنَّها اليدُ اليُمنى، والثَّاني أنَّها القُوَّةُ والقدرة، والثَّالث أنَّها الحَلِفُ والقَسَمُ.

- قال ابنُ جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ): «فمال على آلهة قومه ضربا لها باليمين بفأس في يده يكسرهن. [...] وكان بعض أهل العربية يتأوَّل ذلك بمعنى: فراغ عليهم ضربا بالقوّة والقدرة، ويقول: اليمين في هذا الموضع: القوّة: وبعضهم كان يتأوّل اليمين في هذا الموضع: الحلف، ويقول: جعل يضربهنّ باليمين التي حلف

---

[1] السمرقندي، بحر العلوم، ج2، ص504.

[2] الزمخشري، الكشاف، ج3، ص222.

[3] يُنظر: السمين الحلبي، الدر المصون، ج8، ص394-395.

[4] نُلاحظُ هنا أنَّا نعدد الأقوال في الآيةِ دون تعرض إلى الترجيح؛ لأنه ليس من غرضنا، وإلاَّ فإنَّ في هذه الآية على سبيل المثال، مرجحاتٍ للقول الأول (الحلف)، منها: سبب النزول (حلف أبي بكر ﷺ على عدم الإنفاق على مسطح)، ومنها الاستعمال القرآني (للذين يولون من نسائهم)، ومنها القراءة الشَّاذَّة (قراءة الحسن: يَتَأَلَّ).

[5] معنى الآيةِ إجمالاً: أنَّ إبراهيم ﷺ لما تعذَّر لقومه بأنَّه سقيمٌ لكيلا يخرُجَ إلى مشاهد زورِهم؛ مال على آلهتهم في غفلةٍ منهم ضربا لها باليمين بفأس في يده يكسرهن. يُنظر: ابن جرير، جامع البيان، ج21، ص67.

بها بقوله: (**وَتَاللَّهِ لأكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ**)»[1]. وأخصرُ منها عبارةُ السمرقنديِّ رحمه الله (ت:373هـ) (بحر العلوم): «(**فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ**) يعني: أقبل يضربهم بيمينه. ويقال: يضربهم باليمين التي حلف، وهو قوله: (**وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ**)[الأنبياء:57]. ويقال: بِالْيَمِينِ. يعني: يضربهم بالقوة، واليمين كناية عنها؛ لأن القوة في اليمين»[2].

– وهي الأقوال الَّتي تداولَها أهل اللُّغة في الآيةِ. قال الفرَّاءُ رحمه الله (ت:207هـ): «واليمين: القدرة والقوّة. وكذلك قوله: (فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ)، أي: بالقوّة والقدرة. وقال الشاعر [الشماخ]:

إِذَا ما رايةٌ رُفِعت لمجدٍ * تلقاها عَرَابةُ باليمين

أي بالقدرة والقوة. وقد جاء فِي قوله: (فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ) يقول: ضربهم بيمينه التي قالها: (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ)»[3]. وقال النَّحَّاسُ رحمه الله (ت:338هـ): «يجوز أن يكون معنى (باليمين) بالقوة كما تقدم، ويجوز أن يريد اليد، وقيل: بيمينه حين قال: (وتالله لأكيدن أصنامكم)»[4].

وبعيدًا عن التَّرجيحِ بين هذه الأقوال؛ فإنَّ الاِشتراك في لفظ (اليمين) حمَّلَ الآيةَ معانيَ مُتكثِّرةً، يُمكنُ حملُها عليها جميعًا دون تعارضٍ أو إلباسٍ[5].

3– كلمة (**مواقع النُّجوم**) من قول الله ﷻ: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾[الواقعة:75–76]، فإنَّ فيها أقوالاً[6]؛ أشهرها اثنان: الأوَّل: أنَّها منازل القرآن (أي أوقات تنزله مُفرَّقا)، والآخرُ: مساقط نجوم السماء ومغاربها.

– قال السَّمرقنديُّ رحمه الله (ت:373هـ): «(بِمَواقِعِ النُّجُومِ) يعني: بنزول القرآن، نزل نجوماً آية بعد آية، [...]. ويُقالُ: بِمَواقِعِ النُّجُومِ يعني: بمساقط النجوم. يعني: الكواكب»[7]. وقال البغويُّ رحمه الله (ت:510هـ):

---

[1] ابن جرير، جامع البيان، ج21، ص67.

[2] السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص146.

[3] الفراء، معاني القرآن، ج2، ص384–385.

[4] النحاس، معاني القرآن، ج6، ص43–44.

[5] الملاحظُ أنَّهُ يُمكنُ أن نردَّ هذه المعانيَ الثَّلاثة لُغةً إلى معنًى واحدٍ؛ هو يمينُ اليدِ إذ هي الأصل، وسُمِّيت القوَّة والمتانةُ يمينًا؛ لأنَّ اليمين في العموم الأغلب أقوى الجارحتين وأشدُّهما، وَسُمِّيَ الْحَلِفُ يَمِينًا لِأَنَّ الْمُتَحَالِفَيْنِ كَأَنَّ أَحَدَهُمَا يَصْفِقُ بِيَمِينِهِ عَلَى يَمِينِ صَاحِبِهِ. يُنظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج6، ص158–159. و: الزمخشري، الكشاف، ج4، ص50.

[6] بلغ بها الماورديُّ رحمه الله (ت:450هـ) في (النُّكت والعيون) ستَّة أقوال. يُنظر: ج5، ص461–462.

[7] السمرقندي، بحر العلوم، ج3، ص397.

«قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَادَ نُجُومَ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ كَانَ يَنْزِلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُتَفَرِّقًا نُجُومًا. وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: أَرَادَ مَغَارِبَ النُّجُومِ وَمَسَاقِطَهَا»[1].

– وهما القولان اللذان نجدهما عند أهل اللُّغة كذلك. قال الفرَّاءُ رحمه الله (ت:207هـ): «(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ[2] النُّجُومِ)، قَالَ: بِمُحْكَمِ الْقُرْآنِ، وَكَانَ يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ نُجُومًا. وقوله: (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) يدل عَلَى أَنَّهُ القرآن. وَيُقَال: (فلا أقسم بموقع النجوم)، بمسقط النجوم إِذَا سقطن»[3]. وكأنَّ الزَّجَّاجَ رحمه الله (ت:311هـ) انتزع عبارة الفرَّاءِ حين قال: «ومواقع النجوم مَسَاقِطُها، كما قال ﷻ: (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ). وقيل: إن مواقعِ النجومِ يعنى به نجوم القرآن، لأنه كان ينزل على النبي ﷺ نُجُوماً شيئاً بَعْدَ شَيءٍ، ودليل هذا القول: (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)»[4].

– ومنشأ الخلاف في تفسير الآية؛ الاِشتراكُ الواقعُ في جزئي المركَّب الإضافيِّ (مواقع النَّجوم) جميعًا؛ فإنَّ الجزء الأول منه كلمة (مواقع)، مُفردها (موقِع)، وهي على زنة (مَفْعِل)؛ صيغة تصلحُ للزَّمان (زمن نزول القرآن)، وللمكان (أماكن سقوط النجوم وأفولها ومغربها). وكلمة (النَّجوم) أيضًا مُشتركةٌ بين عدَّة معانٍ؛ منها المجموعات المتفرقة من الآيات؛ لأن القرآن الكريم نزل مُفرَّقا حسب الوقائع، نجومًا؛ ثلاث آيات وأربع آيات وخمس آيات. ومنها النُّجوم بمعنى الكواكب، أو الأجرام السَّماويَّة المعروفة[5]، والآيةُ مُحتملةٌ للمعنيين جميعًا، لذلك نجدُ أهل العلم افترقوا في التَّرجيح بينهما، وكلٌّ أخذَ بحُجَّةٍ[6].

---

[1] البغوي، معالم التنزيل، ج8، ص22.

[2] بالإفراد (موقع) قراءة حمزة والكسائي من الكوفيين، والفراء كوفي تبع شيخه الكسائيَّ في القراءة.

[3] الفراء، معاني القرآن، ج3، ص129.

[4] الزجاج، معاني القرآن وإعرابهُ، ج5، ص115.

[5] يُنظر: ابن جرير، جامع البيان، ج23، ص148. و: الزمخشري، الكشاف، ج4، ص468-469.

[6] رجَّح القول الأول (أن مواقع النجوم أوقات تنزل القرآن) الفراء والزجاج، واحتجوا بـ(السياق)؛ إذ بعد هذه الآية مباشرةً (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)، كما سقناه في المتن. فيما رجَّح ابنُ جريرٍ رحمه الله القول الثاني (مواقع النجوم مساقطها ومغايبها في السماء)، واحتجَّ بأنَّه المعنى الأغلب، والأظهر في الاستعمال. قال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: فلا أقسم بمساقط النجوم ومغايبها في السماء، وذلك أن المواقع جمع موقِع، والموقع المفعِل، من وقع يقع موقِعًا، فالأغلب من معانيه والأظهر من تأويله ما قلنا في ذلك، ولذلك قلنا: هو أولى معانيه به» جامع البيان، ج23، ص148.

4- كلمة (**النَّجم**) من قول الله ﷻ: ﴿**وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ**﴾[الرحمن:6]، فقد اخْتُلِفَ في تفسيرها على قولين: الأوَّلُ: النَّجمُ ما نبتَ على وجه الأرضِ ممَّا ليس لهُ ساقٌ. والآخرُ: النَّجمُ نجمُ السَّماء؛ الجُرم المعروف.

- وقد أورد ابنُ جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ) اختلاف أهل التأويل في معنى النجم في هذا الموضع، مع إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فقال بعضهم: عُنِيَ بالنجم في هذا الموضع من النباتُ: ما نجم من الأرض، مما ينبسط عليها، ولم يكن على ساق مثل البقل ونحوه [...] عن ابن عباس ﷺ، في قوله: (وَالنَّجْمُ) قال: ما يُبسط على الأرض. وقال آخرون: عُنِي بالنجم في هذا الموضع: نجم السماء [...] عن مجاهد وقتادة رحمهما الله، في قوله: (وَالنَّجْمِ) قالا: نجم السماء[1]. قال الماورديُّ رحمه الله (ت:450هـ): «(وَالنَّجْمُ وَالْشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) في النجم قولان: أحدهما: نجم السماء، وهو موحد، والمراد به جميع النجوم؛ قاله مجاهد. الثاني: أن النجم النبات الذي قد نجم في الأرض وانبسط فيها، ليس له ساق، والشجر ما كان على ساق؛ قاله ابن عباس ﷺ»[2].

- وما أحسنَ عبارةَ الزَّجَّاجِ رحمه الله (ت:311هـ) من اللُّغويِّين في بيان القولين الواردين في الآية؛ حينَ يُقرِّرُهما ويحتجُّ لهما بقوله: «وقوله تعالى: (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) قال أهل اللغة وأكثر أهل التفسير: النجم كل ما نبت على وجه الأرض مما ليس له سَاق، والشَجَرُ كل ما له ساق، ومعنى سجودهما دوران الظل معهما كما قال: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ).

وقد قيل إنَّ النجم أيضاً يراد به النجوم؛ وهذا جائز أن يكون، لأن اللَّه ﷻ قد أعلمنا أن النجم يسجد، فقال: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ).

ويجوز أن يكون النجم ههنا يعني به ما نبت على وجه الأرض وما طلع من نجوم السماء، يقال لكل ما طلع: قَدْ نَجَمَ»[3].

ويبدو أنَّ الأزهريَّ رحمه الله (ت:370هـ) قد استفاد منها في (تهذيب اللُّغة) فقال: «وَأما قَوْله ﷻ: (بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)؛ فَإِن أهل اللُّغَة وَأَكْثر أهل التَّفْسِير قَالُوا: النَّجم: كل مَا نَبَتَ على وَجه الأَرْض مِمَّا لَيْسَ لَهُ سَاق، وَمعنى سجودهما: دَوَران الظِّلِّ مَعَهُمَا.

---

[1] يُنظر: ابن جرير، جامع البيان، ج22، ص11-12.

[2] الماوردي، النكت والعيون، ج5، ص424.

[3] الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج5، ص95-96.

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاق: قد قيل إِن النَّجم يُرَاد بِهِ النُّجُوم، وَجَائِز أَن يكونَ النَّجْم هَا هُنَا، مَا نَبت على وَجه الأَرْض، وَمَا طلع من نُجُوم السَّمَاء، وَيُقَالُ لكلِّ مَا طلع: قد نجمَ»[1].

– والمتأمِّلُ في هذين القولين؛ يُدركُ أنَّ سبب الاختلاف بينهما الاشتراكُ الواقعُ في كلمةِ (النَّجم)؛ فإنها تُطلق في اللغة ويُرادُ بها ما لا ساق له من النَّبات، ويُرادُ بها الجُرمُ العلويُّ المعروف، والآيةُ تقبلُ التَّفسيرينِ جميعًا، وهما من باب اختلافِ التَّنوُّعِ الذي تحتملُه الآيةُ بلا تضادٍّ. قالَ ابنُ عَاشُورَ رحمه الله (ت:1393هـ=1973م): «وجُعِلَ لَفْظُ النَّجْمِ واسطةَ الانتقالِ لصلاحيتِه؛ لأنَّه يُرادُ منه: نُجُومُ السَّماءِ، وما يسمى نجماً من نباتِ الأرضِ»[2]. ومن ثَمَّ، فتفسيره بأنه ما لا ساق له يناسبُ ما بعده في الآيةِ؛ إذ وقع في مُقابلة الشَّجَر. لهذا قالَ أصحابُ هذا القولِ: النَّجْمُ: الذي ليسَ له ساقٌ، والشَّجَرُ: الذي له سَاقٌ. وتفسيره بنجمِ السماءِ يناسبُ ما قبله من الآياتِ الكونيَّةِ العلويَّةِ، وهو قولُه تعالى: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)[3].

5– كلمة (**المساجد**) من قول الله ﷻ: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾[الجن:18]، فإنَّ أهل اللغة والتفسير اختلفوا في تفسيرها على ثلاثةِ أقوالٍ: الأوَّل: أنَّ المساجد مواضع السُّجُودِ من الإنسان، والثَّاني: أنَّها مصدرٌ ميميٌّ بمعنى السُّجودِ، والثَّالثُ: أنَّها المساجد المعروفة (دور العبادة).

– أمَّا الأوَّلُ؛ فقال الفرَّاء رحمه الله (ت:207هـ): «وَيُقَال: (وَأَنَّ المساجد لله)، يريد: مساجدَ الرجلِ: ما يسجد عَلَيْهِ من: جبهته ويديه وركبتيه وصدور قدميه»[4].

– وأمَّا الثَّاني؛ فقال ابنُ قُتيبةَ رحمه الله (ت:276هـ): «(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ) أي السُّجود لله، هو جمع "مَسجَد"؛ يقال: سجدت سجودًا ومَسجَدًا؛ كما يقال: ضربت في البلاد ضربًا ومَضرَبًا، ثم يجمع فيقال: المساجدُ لله، كما يقال: المضاربُ في الأرض لطلب الرزق»[5].

---

[1] الأزهري، تهذيب اللُّغة، ج11، ص87-88.

[2] ابن عاشور، التحرير والتنوير،

[3] يُنظر: مساعد الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ص460-462.

[4] الفراء، معاني القرآن، ج3، ص194.

[5] ابن قتيبة، غريب القرآن، ص491. وقد استبعد رحمه الله القول الأول (المساجد مواضع السجود من الإنسان) في أوائل الكتاب، وعدَّه من الغلط. ص5.

– وأمَّا الثَّالثُ؛ فقد ذكر ابنُ جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ) في (جامع البيان)، «عن قتادة (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) قال: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيه أن يخلص له الدعوة إذا دخل المسجد»[1].

وهذه المعاني جميعًا؛ إذا تأمَّلنا سبب احتمالها في الآية؛ وجدناه الاِشتراك في دلالة كلمة (مساجد)، فإنَّها من جهة اللُّغة جمع كلمة (مسجد)، وهذا البناءُ (مفعل) يشترك فيه اسم الآلة (أعضاء الإنسان التي يسجد بها)، مع المصدر الميميِّ (المسجد = السجود)، مع اسم المكان (محل السجود ومكان العبادة)، وتفسير الآية على هذه المعاني المشتركة ممكنٌ كذلك، ولا تنافر بينها ولا بُعدَ.

6– كلمة (**معاذيره**) من قول الله ﷻ: ﴿**بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**﴾[القيامة:14-15]، فإنَّ أهل التَّأويل منها على قولين: الأوَّل: الأعذار؛ أي الاعتذار بالقول والمجادلة بالباطل عمَّا أتى من الآثام وركب من المعاصي. والآخر: إرخاءُ السُّتور وإغلاقُ الأبواب.

– قال الفرَّاءُ رحمه الله (ت:207هـ): «وقوله ﷻ: (بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)، يَقُولُ: عَلَى الْإِنْسَان من نفسه رقباء يشهدون عَلَيْهِ بعمله: اليدان، والرجلان، والعينان، والذكر، قَالَ الشَّاعِر:

كأنَّ عَلَى ذي الظن عينًا بصيرةً * بمقعده أو منظر هو ناظره

يحاذرُ حتى يحسبَ الناسَ كلَّهم * من الخوف لا تخفى عليهم سرائرُه

وقوله ﷻ: (وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ) جاء فِي التفسير: ولو أرخى ستوره. وجاء: وإن اعتذر فعليه من يكذب عذره»[2].

وقال ابنُ جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ): «وقوله: (وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) اختلف أهل الرواية في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: بل للإنسان على نفسه شهود من نفسه، ولو اعتذر بالقول مما قد أتى من المآثم، وركب من المعاصي، وجادل بالباطل. [...]عن ابن عباس: (وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) يعني الاعتذار، ألم تسمع أنه قال: (لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ) وقال الله: (وألقوا إلى الله يومئذ السَّلَم) ، (كنا نعمل من سوء) (1) . وقولهم: (وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ). [...]

[1] ابن جرير، جامع البيان، ج23، ص665.

[2] الفراء، معاني القرآن، ج3، ص211.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولو أرخى الستور وأغلق الأبواب. [...] عن السديّ في قوله: (وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) ولو أرخى الستور، وأغلق الأبواب»[1].

– وإذا نظرنا سبب الخلاف في تفسير الآية؛ وجدناه الإشتراك الحاصل في كلمة (المعاذير)؛ إذ تحتمل أن تكون «معاذيره: مَا اعتذر بِهِ. وَيُقَال: المعاذير الستور، وَاحِدهَا معذار»[2]. أي أنَّ الاشتراك حصل في صيغة الجمع؛ التي قد تكون مفرد (معذرة بمعنى عذر)، وقد تكون مفرد (مِعذار بمعنى ستر)، وحمل الآية عليهما جميعًا غيرُ مُستَنكرٍ.

والمتأمِّلُ في هذه الأمثلة الَّتي قرَّبنا بها قضيَّة (دلالة الاشتراك) وأثرها في اختلاف أقوال المفسرين، يُلفي أنَّها كانت سببًا في ثراء المعنى وزيادته؛ من خلال إمكان حمل الآية على تلك المعاني المختلفةِ، دون وُقوعٍ في التَّناقض والاختلاف، وذلك وجهٌ من وُجوه إعجاز القرآن، كما قرَّرناه في موضعه من كلام السُّيوطيِّ رحمه الله.

[1] ابن جرير، جامع البيان، ج24، ص63-64.

[2] ابن عزيز السجستاني، غريب القرآن، ص429.